البنية اللّسانية للخطاب الدّيني

أ.سعاد سليماني
قسم اللّغة والأدب العربي
المركز الجامعي لعين تموشنت

ينصرف مفهوم الخطاب الدّيني إلى السّعي لنشر دين اللّه الحقّ عقيدة وخُلُقًا ومعاملة، وبذل الجهد في تحقيق ذلك المسعى، كما يستند إلى مرجعية إسلامية أساسها: كلام الله (القرآن الكريم) وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والغاية –كما هو معلوم– من الخطاب الدّيني هي إخراج البشرية من الظّلمات إلى النّور والفوز بالدّارين1.

يمكن تقسيم الخطاب الدّيني وفق أحوال المتلقّي والرّسالة الموجّهة إليه إلى ثلاثة أصناف: إمّا أن يكون المتلقّي خالي الذّهن يتقبّل المعلومة الملقاة إليه، وهذه الحالة تقتضي خطاب ديني تعليمي، وإمّا ان يكون متناسيا لما تعلّم، غافلا عمّا ينتظره، فتتطلّب هذه الحالة الحثّ على العمل والتخويف من العقاب، وذلك هو الخطاب الوعظي، وإمّا أن يكون عالما ومخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب، وهذه الحالة تستلزم الحجّة والبرهان، وذلك هو الخطاب الحجاجي أو المناظرات2.

نسعى في موضوعنا هذا إلى أن نسلّط الضّوء على البنية اللسانية للخطاب الدّيني بالخصوص، لأنّ لكلّ نمط من الخطابات مفرداته الخاصّة، التي تُعبّر عن حقل من الحقول المعرفية كالخطاب السّياسي والخطاب الشّعري والخطاب الدّيني ...إلخ. **والإشكالية المطروحة : ما الفائدة من**

المنارة للاستشارات
www.mana

دراسة البنية اللّسانية للخطاب الدّيني، ومتى يكون الخطاب الدّيني ناجحا؟ وهل تساعده بنيته اللّسانية على ذلك؟

وعليه فإنّ الإجابة على هذه التّساؤلات تستلزم توضيح مفهومين أساسيين في هذا البحث وهما: البنية اللّسانية والخطاب الدّيني، لنصل في الأخير إلى الغاية من ربط المفهومين.

تتنوّع المفردات اللسانية باختلاف الخطابات ومقاصدها، ممّا يجعل البنية اللّسانية للخطاب الدّيني تتميّز عن الخطابات الأخرى مثلا بالأمر بالمعروف بيسر لاستقطاب عدد كبير من المخاطَبين، مما يؤدّي إلى النّجاح في العملية التّبليغية للدّعوى لتعاليم الإسلام؛ ومنه نصل إلى أنّ قوّة البناء اللّساني في حسن استعمال المفردات يؤدي إلى مردودية دعوية تداولية ناجحة بالنّسبة للخطاب الدّيني. والتّداولية كمجال خصب للخطاب، يعود التّقدّم المنهجي والإجرائي لها إلى الجهود الكبيرة للعلماء: "أوستين" و"سيرل" و"جرايس" حيث كان تحديدهم لها بوصفها دراسة للكيفيات التي تجعل الخطاب ناجحا، وتوفّر الشّروط اللاّزمة لاستمراره بالاستناد إلى العديد من الإشارات وتعيينها، لأنّها تمثّل العنصر الفعّال في الخطاب3.

البنية اللّسانية:

تعدّ البنية (structure) الهيئة المتماسكة التي تظهر عليها العناصر المكوّنة لها، وهي شبكة العلاقات التي تشدّ تلك العناصر بعضها إلى بعض.4، والبنية اللّسانية (la structure linguistique) هي التّجريد الذي لا يحمل حقائق اللغة إلاّ عن طريق شبكة علاقات تقابلية مميّزة بين العناصر التي تسمح للّغة

المنارة للاستشارات
www.mana

للقيام بوظيفتها الأساسية، والتي تعدّ وظيفة تواصل. على الرّغم من أنّ البنية اللّسانية فكرة مجرّدة، فهي ليست صنيعة العقل؛ وإنّما تحدّدها اللّغة5.

داخل البنية، يجب أن يكون كل عنصر محدّد في العلاقات، لا يمكن أن يكون كذلك إلاّ من خلال علاقته مع العناصر الأخرى. عادة، توجد بنية في الاختلافات بين الوحدات التي تقابل بعضها البعض، مظهرة قيمتها التمييزية (valeurs distinctes). ولذلك، فإنّ البنية لا يمكنها استيعاب كلّ الظّواهر التي تؤلّف لغة ما. إذا كانت بنيات المجتمع6 أو البنيات اللاّتي تعدّ من سلوك المتحاورين لها تأثير على اللّغة7، فإنّها ستظل إضافية بالنّسبة لوظيفة التّواصل8.

إنّ تعيين اللّغة كبنية عموما سوف يضطرنا إلى أن نأخذ في الاعتبار جميع أنواع البنيات التي يمكنها المشاركة؛ يجب تقديمها (اللّغة) بالعكس، طبقاً لاقتراح "هلمسليف" (Hjelmslev)، الذي رآها "ككيان مستقل يحتوي على تعلّقات داخلية. فمفهوم "بنية" مؤسّسة على حجّة وظيفية للتّواصل، تشمل حجج"هلمسليف": مستقلّة (autonome) وتعلّقات داخلية (dépendances internes) 9.

عمليا، يحدّد بنية اللغة كلّ موضع من السّلسلة الكلامية (اللّغة المنطوقة) أو المدوّنة (اللّغة المكتوبة)، عملية التّواصل. في المثال: يمشي/ محمّدٌ/ مسرعا، تحدّد ثلاث وحدات دلالية دالّة (unités sémantiques significatives). بما أنّ في هذا المستوى، التّواصل لا يمكن أن يكون إلاّ في ثلاثة مواضع (endroits)، تستمرّ في كلّ المستويات الأخرى، تعيّن هذه العملية علاقات التّقابلات الاستبدالية (oppositions paradigmatiques) بين العناصر التي

المنارة للاستشارات
www.mana

يمكن أن تظهر في نفس الموضع من السّلسلة، على مستوى الفونيمات (phonèmes)، فعّالية الإبدال قاطعة، تسمح بتعيين الطّابع البنيوي (caractère structural) للعلاقات التّقابلية، أمّا على مستوى المونيمات (monèmes10) في حقل العلاقات الدّلالية، نجد صعوبة أكبر في تحديد نُظُمٍ مغلقة، إلاّ في الحالات الخاصّة للألفاظ ذات القرابة، أرقام،...إلخ. حتّى الآن، لا توجد دلالة بنيوية حقيقية11.

العلاقات التّبادلية في اللّغة:

نعالج هذا البحث وفق العلاقات المتبادلة في اللّغة، والتي تتمثّل في بعدين أساسيين للخطاب:

1- البعد الأفقي (syntagmatique) الذي يمثّله المستوى الأدائي للخطاب، المنطبق على تتابع المنطوق.

2- البعد الرّأسي (paradigmatique) الذي يمثّل الفئات المتقابلة من المستوى المعجمي بانتقاء المصطلحات التي تتناسب مع مقام الدّعوة الإسلامية، للوصول إلى هدف تداولي يحقّق نجاح الخطاب الدّيني.

ويمكن أن نتناول العلامات اللّغوية في العلاقات المتبادلة من زاوية علاقة بعضها ببعض دون أن ننسى أنّ العلامة لا تنتج معناها الكامل إلاّ بصلتها بغيرها من العلامات، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نصنّف العلامات في نصّ من النّصوص إلى علاقات أفقية وأخرى عمودية رأسية، ويوضّح الشّكل (1) معنى المصطلحين 12:

المنارة للاستشارات
www.mana

المستوى المعجمي

(paradigmatique)

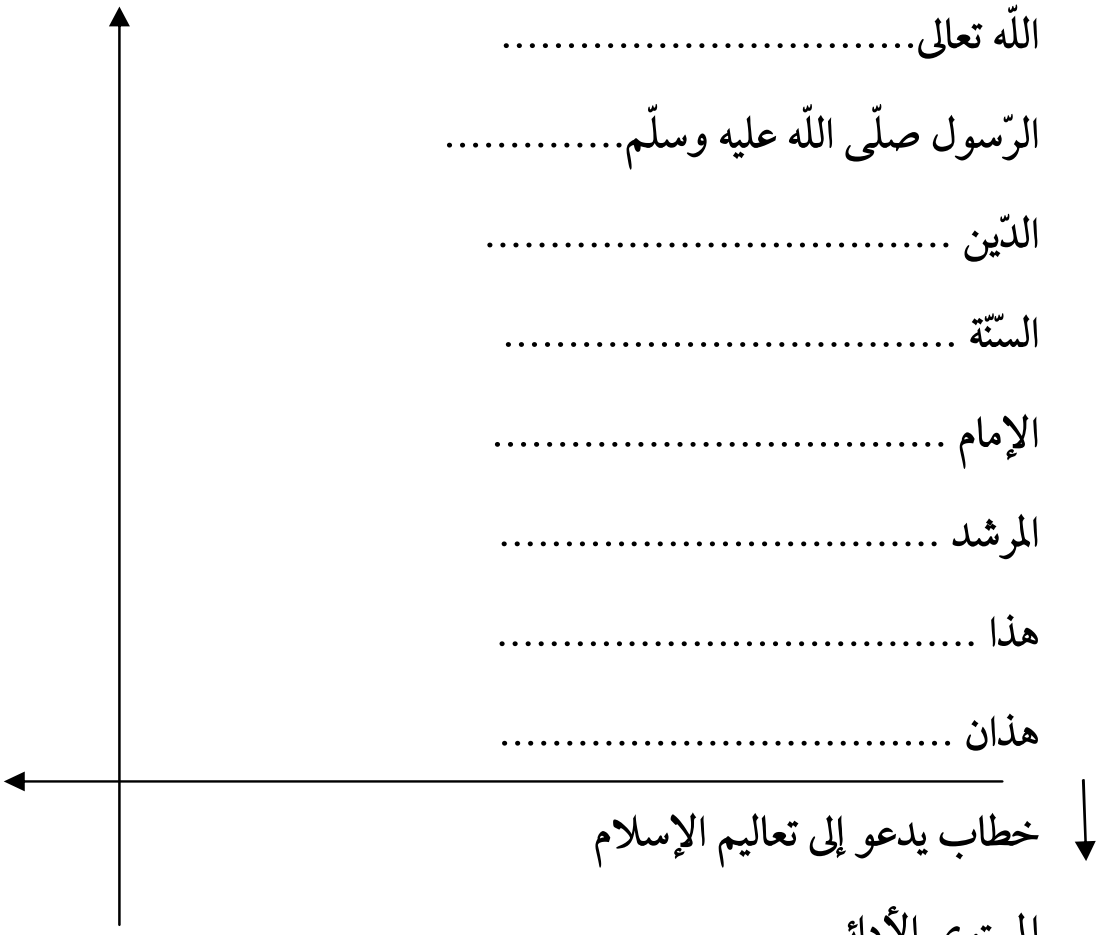

المستوى الأدائي

(syntagmatique)

تمثّل العلاقة الأفقية تركيب ودمج بين العلامات، وهو توالي عناصر الكلام، أمّا العلاقة العمودية أو الرّأسية فتمثّل علاقة اختيار، وهذا الاختيار لا يقتصر على العناصر اللّغوية أو على وحداتها، وإنّما يتناول كذلك التّراكيب المكوّنة من أكثر من عنصر، وهو ما يوضّحه الشّكل (2): 13

المستوى المعجمي (paradigmatique)

المنارة للاستشارات
www.mana

أقم ..... –اللّه تعالى يدعو إلى إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة في قوله:

أقيما..... (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ)14

هم يقيمون ..... وَ/ أَقِيمُوا / الصَّلاَةَ / و/ آتُوا/ الزَّكَاةَ

أنتن أقمن .....

.....

المستوى الأدائي (syntagmatique)

يوضّح المستوى الأدائي الاستعمال الحسن المؤثّر للرّبط بين عناصر المستوى المعجمي، كما يوضّح هذا الأخير اختيار الكلمات التي تتناسب مع الواقع الاستعمالي البراغماتي للخطاب الدّيني. فقد جاءت هذه الآية الكريمة على هذا النّحو من التّركيب لتبيّن أمرين من التّعاليم الدّينية: إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة، الذي ارتبط وجودهما في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وهذا يدلّ على أنّ اللّه عزّ وجلّ أراد أن يربط إقامة الصّلاة بإيتاء الزكاة، لأنّ النّاس قد تجدهم يصلّون لاعتقادهم هي العلاقة الوطيدة للعبد بربّه متناسين أهمّية الزّكاة، ولكن الإعجاز القرآني دائما يبيّن لنا هذه العلاقات بين المفاهيم,

المنارة للاستشارات
www.mana

الخطاب بين العلماء العرب والنّظريات الغربية الحديثة (نظرة مختصرة):

اهتمّ العلماء العرب بالكلام والخطاب بصفة كبيرة خلافا ل "دي سوسير"، والسّبب واضح، فاحتياج المسلمين إلى فهم ما جاء في القرآن والسّنة من الأوامر والنّواهي ولوازم المعنى وغير ذلك، أدّى إلى بذل جهود جبّارة مفيدة في هذا الحقل، ولم يختصّ به فريق واحد بل اشترك في دراسة الخطاب اللّغوي النّحوي والبلاغي، كما اهتمّ به المفسّر والمتخصّص في أصول الفقه، فنجد الباحث في الخطاب يجمع بين ميدانين اثنين أو أكثر15.

والفرق الأساسي الذي يوجد بين "سوسير" والعلماء العرب يكمن في نظرة كل واحد منهما إلى الأساس الذي بني عليه وضع اللّغة. فنظرة "سوسير" تؤكّد على الجانب التّباييني لأدلّة اللّغة، حيث ألّح "سوسير" على ذلك وفقا لقوله: " لا توجد في اللّغة إلاّ اختلافات"16 على أنّ ما جاء في كتاب "سوسير" وما تركه من مقالات، يدلّ على اهتمامه بالجوانب الأخرى. كما يصلح مقياس التّباين خاصّة لنظام الأصوات في الفونولوجية (ممّا بحث فيه أتباع "دي سوسير" وحلقة براغ). وهناك فرق آخر وهو أنّ "دي سوسير " يرى أنّ النّظام اللّغوي ينحصر كلّه في الأدلّة (الكلم)، أمّا العرب فلا يحصرونه في الأدلّة، بل يتجاوزون ذلك إلى البنية أيّا كان مستوى اللّغة. وقد نبّه "دي سوسير" إلى أنّ اللّغة كوضع ونظام غير الكلام الذي هو استعمال لها17. وهذا ما وضّحناه في الشّكل (1) والشّكل (2) السّابقين.

قد اهتمّ علماء العربية أيضا بهذا الجانب التّباييني، فكلمة "بيان" هي نفسها دليل على ذلك: معناها هو الوظيفة الأساسية للّغة أي الفهم والإفهام وجميع وسائل الاتّصال هي كذلك، ولا يوجد بيان مع التباس الحروف والكلم

www.mana

بعضها ببعض، إلاّ أنّ العرب تجاوزوا مفهوم الوظيفة البيانية المبنية على الوظيفة التّمييزية للصّفات التي يراها اللّسانيون الوظيفيون الغربيون الخاصّية الأساسية للّغات. وهذا بعيد عن الدّرس اللّغوي العربي، فإنّهم تنبّهوا إلى أنّ التّباين لا يكون فقط بالصّفات، بل يكون أيضا بالتّراكيب والأبنية. وأمّا في الخطاب فلم يكتفوا أيضا بالوظيفة البيانية: فالفهم والإفهام كما صرّح الجاحظ، ليس هو الغاية القصوى من البيان18.

تردّد "سوسير" في عدّ الجملة موضوعا يدخل في دراسة اللّغة، فقد صرّح أنّه ليس متيقّنا بأنّها من ميدان الكلام أي الاستعمال، بل هي –حسب حدسه– تعدّ ظاهرة نحوية، ولم يتنبّه إلى أنّ بنيتها خاضعة لوضع اللّغة بدلالتها على معان وأنّ استعمال هذه البنية أي اختيارها من بين البُنى والاتّساع فيها هو الذي يرجع إلى الخطاب. يوجد عالم لساني في العشرينات "قيوم" (G. Guillaume) له نظرة قريبة لمفهوم التّقابل عند العرب، فقد ميّز بين اللّغة وما يسمّيه (Discours) وهو الخطاب، ويسمّي المعنى الذي يخصّ وضع اللّغة: (Sens) = المعنى، والمعنى الذي يخصّ الخطاب: (Effet de sens) = أثر المعنى، كلّ كلمة لها معنى وضعي (معاني مشتركة وضعية في كثير من الأحيان) ومعان كثيرة غير وضعية صادرة عن تطوّر الفكر وحركيته، وهي الاتّساع والمجاز عند العرب، وقد جعل "قيوم" تحوّل الوضعي إلى الخطابي نفسانيا الأمر الذي خالف فيه العرب في هذا الأمر19.

وأخيرا، حسب ما ورد في هذا العمل المختصر، نقول أنّ الفائدة من دراسة البنية اللّسانية للخطاب الدّيني هي فائدة كبيرة تعلّمنا أنّ المستوى المعجمي له تأثيره الإيجابي إن استعمل في تأليفات أدائية تخدم الجانب

المنارة للاستشارات
www.mana

التّداولي، بشكل يترجم ما أتى في كتاب اللّه عز وجلّ وسنّة رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإحالات

1- محمّد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأوّل نموذجا، أفريقيا الشّرق، المغرب، أفريقيا الشّرق، بيروت، ط2، 2002، ص: 40،41.

2- شنّان قويدر، تحليل الخطاب والتّداولية، مجلّة الممارسات اللّغوية، الجزائر ، العدد: 02، 2011م، ص: 246، 2047.

3- www. Lissaniat. Net, 10/03/2013.

4- Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, 4e édition " Quadrige " : 2004, p: 307.

5- تقوم نظرية "فيرث" السّياقية على إعادة الاهتمام بالأحوال والمحيط الذي يتضمّن الأحداث الكلامية، فالتّرجمة الحرفية للكلام، يفقده وظيفته الأساسية، وهي التّواصل بين البشر، لذلك فإنّ معنى العبارات لا يتّضح ولا يكون جلّيا إلاّ إذا روعيت الأنماط الحياتية للجماعة المتكلّمة، وكذا الحياة الثّقافية والعاطفية والعلاقات التي تؤلّف بين الأفراد داخل المجتمع، ينظر: شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 2004م، ص: 20. كما نادت مدرسة براغ بربط اللّغة بجامليها، فهي تتحقّق حسب رأيهم بارتباطها الاجتماعي، ينظر: بريجيته بارتشت، ترجمة وتعليق وتمهيد: سعيد حسين بحيري، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط1(1425ه، 2004م)، ص: 260.

6- وهذا يدلّ على أهمّية السّلوك الإنساني بما في ذلك اللّغة الذي نادى به "ليوناردو بلومفيلد" في نظريته السّلوكية (théorie behaviorisme)، ينظر: جفري سامسون، ترجمة: محمّد جياد كبّة، الرّياض، دط، دت، من ص: 57 إلى ص: 66.

7- Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, p: 307.

8- Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, p: 307.

9 - أصغر وحدة من التّقطيع الأوّل، تنقسم إلى شكل (دال: signifiant) ومعنى (مدلول: signifié). فمثلا: اللّفظ: يخرجون، ينتج عن هذا التّرتيب ثلاث مونيمات: ي/ خرج/ ون. مرادف

المنارة للاستشارات
www.mana

تقريبي للمورفيم (morphème) في المصطلحية الأمريكية. ولا يجب الخلط مع المورفيم (= مونيم نحوي) في مصطلحية مارتيني. ولا ننسى أنّه عند مارتيني يوجد مونيم عندما يكون هناك اختيار، وليس عندما يكون هناك شكل. في العربية، الجملة الاسمية: الخزانة كبيرة، متكوّنة من علامتين مؤنّثتين، التي لا تستلزم أي اختيار، لا تكوّن مونيم. يحدث عندما النّوع يبيّن الجنس، مثلا: الطّفلة صغيرة، فالتّاء المربوطة في الطّفلة وصغيرة تبيّن اختيارا يقابل مدلول الطّفلة بمدلول الطّفل. ينظر:

Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, p : 218,219.

وينظر كذلك: شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، ص: 3، 4.

10- Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, p 307,308.

12- ينظر: سعيد شنّوفة، مدخل إلى المدارس اللّسانية، المكتبة الأزهرية للتّراث، مصر، ط1، 2008، ص: 66.

13- ينظر: المرجع نفسه، ص: 67.

14- سورة البقرة، الآية: 43.

15- عبد الرّحمن الحاج صالح، الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2012م، ص: 202.

16- Saussure (F.d), Cours de linguistique de linguistique générale, Payot, Lausanne (5e ed.,1955), p : 166.

17- عبد الرّحمن الحاج صالح، الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص: 202، 203.

18- المرجع نفسه، ص: 204.

19- المرجع نفسه، ص: 204، 205.

المنارة للاستشارات

www.mana